مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

يقول تعالى: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ أي: بمخالفة رُسُلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خِزْيُ الدُّنيا موصولاً بذُلِّ الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥ ﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨ ﴾ (٤)

---

(١) الأعراف: ٤- ٧.
(٢) الأنعام: ١٠.
(٣) الحج: ٤٥.
(٤) القصص: ٥٨.

وقوله: ﴿ فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ أي: فكان منهم مَن جاءَه أمرُ الله وبأسُه ونقمتُه ﴿ بَيَٰتًا ﴾ أي: ليلاً ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ من القيلولَة، وهي: الاستراحةُ وسط النهـــار. وكِلا الوقتَين وقتُ غَفْـــلةٍ ولَهْو، كما قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ (١)، وقال: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٢)

وقوله: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي: فما كان قولُهم - عند مجيء العذاب - إلاَّ أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا. كما قال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٣)

وقال ابنُ جرير: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صِحَّة ما جاءت به الروايةُ

---

(١) الأعراف: ٩٧، ٩٨.
(٢) النحل: ٤٥- ٤٧.
(٣) الأنبياء: ١١- ١٥.

عن رسول الله ﷺ من قوله: « مَا هَلَكَ قَوْمٌ حتى يُعْذِروا من أنفُسِهم »

وقوله: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ.... الآية ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (١)، وقوله: ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (٢) فالرَّبُّ - تبارك وتعالى - يومَ القيامة يسألُ الأُممَ عمَّا أجابوا رُسُلَه فيما أرسلهم به، ويسأل الرسلَ أيضاً عن إبلاغ رسالاته.

وقال ابنُ عباس في قوله: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ يُوضَع الكتابُ يوم القيامة فيتكلَّمُ بما كانوا يعملون ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ يعني: أنه تعالى يُخبرُ عبادَه يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من قليلٍ وكثيرٍ، وجليلٍ وحَقيرٍ؛ لأنه تعالى شهيدٌ على كُلِّ شيءٍ، لا يغيبُ عنه شيءٌ، ولا يغفل عن شيءٍ، بل هو العالِمُ بخائنة الأعيُنِ وما تُخفي الصدور ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٣)

أخي المسلم: ذاكَ ما ذَكَرَه ابنُ كثيرٍ في تفسير هذه الآيات: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾

(١) القصص: ٦٥.
(٢) المائدة: ١٠٩.
(٣) الأنعام: من الآية ٥٩.

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾

فلنتدبَّر ما جاء في هذه الآيات؛ فإنها مَسُوقة للعِبْرَة والعِظَة، وما أخبرت به من إهلاكٍ قد وَقَعَ في الأرض. وكم في الأرض من عِظاتٍ وعِبَرٍ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

والقرآنُ الكريمُ - وهو يُتْلَى على النـــاس - يُريهم عواقبَ الأعمال ونتائجَهـــا ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ (٢) كما يُريهم مصائرَ الذينَ حقَّ عليهم العذاب.

وحديثُ القرآنِ عن الأُمم الماضية فيه تذكيرٌ بسُنن الله الباقية. وما وقع بالمكذبين من قبل سيقعُ بالمكذبين من بعد، وهذا البيانُ فيه إعذارٌ وإنذارٌ، وفيه هُدىً وموعظةٌ للمتقين ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (٣)

فَلْيَسْتَحْضِرِ الإنسانُ - دائماً - حسابه على ما يعمل، وليعلم أنَّ لا شيءَ يَخفى من أمره، في سِرِّه وعَلَنه، وأنه وإنْ غَفلَ في أمره، فليس بمَغفُولٍ عنه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٤)

---

(١) محمد: ١٠.
(٢) الأنفال: من الآية ٤٢.
(٣) آل عمران: ١٣٧، ١٣٨.
(٤) المؤمنون: ١٧.

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (١)

إنَّ آيات القرآن وهي تُتْلَى على الناس، وتُخبرهم عن هلاكِ أُمَمٍ قد ظلمت وأفسدت - فدُمِّرتْ وهَلَكت - إنما تَعظهم حتى لا يقعُوا فيما وقع فيه غيرُهم من الظلم والفساد، فيُصيبهم ما أصابهم. وأيُّ عِظَةٍ أبلغ من ذلك ؟! أنْ يسكن الإنسانُ في مساكن مَن أُخِذُوا بظُلمهم، ودُمِّروا بمعاصيهم، وهو يعلم ما حَلَّ بهم !!

ألاَ يدعوه ذلك أن يعتبر ويتَّعظ، وأن يبتعد - كُلَّ البُعْد - عن أسباب الدمار والخسران ؟! والقرآن الكريم يُحذِّرُ من ذلك ويُبصِّرُ، ويُنذِرُ ويُذَكِّرُ ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ (٢) فكُنْ منهم - أخي المسلم - ومعك الهُدى، والذِّكرُ قد أنزله الله وحَفِظه، وجعله حُجَّة لك أو عليك.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الأعراف: ٧- ٩.

(٢) البقرة: من الآية ٢٦٩.

(٣) الطلاق: ٨- ١١.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هاتين الآيتين قوله:

يقول الله تعالى مُخبِراً عَمَّا اختبرَ به الأممَ الماضيةَ - الذين أرسل إليهم الأنبيـــاءَ - ﴿ بِٱلْبَأْسَآءِ ﴾ أي: بما يُصيبهم في أبدانهم من أمراضٍ وأسقام، ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ أي: بما يُصيبهم من فقرٍ وحاجةٍ، ونحو ذلك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ أي: يَدْعُونَ ويخشعون، ويبتهلون إلى الله تعالى في كَشْفِ ما نَزَل بهم.

وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدَّة؛ ليتضرعوا، فما فعلوا شيئاً من الذي أراد الله منهم، فقَلَبَ الحالَ إلى الرَّخاءِ؛ ليختبرهم فيه. ولهذا قال: ﴿ ثُم بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾ أي: حَوَّلْنا الحالَ من شدَّةٍ إلى رخاء، ومن مرضٍ وسقمٍ إلى صحةٍ وعافية، ومن فقرٍ إلى غنىً؛ ليشكروا على ذلك، فما فعلوا !

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾ أي: كَثُروا وكثُرَت أموالُهم وأولادُهم. يُقَالُ: عَفَا

(١) الأعراف: ٩٤، ٩٥.

الشيءُ، إذا كَثُرَ.

﴿ وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ابتلاهم بهذا وهذا؛ ليَتَضَرَّعُوا ويُنيبوا إلى الله، فما نَجَعَ فيهم لاَ هذَا ولاَ هذا، ولا انتَهَوا بهذا ولاَ بهذا، بل قالوا: قد مَسَّنا من البأساء والضرَّاء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءَنا في قديمِ الدهر. وإنما هو الدهرُ تاراتٌ وتاراتٌ.. ولم يتفطَّنوا لأمرِ الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاءَ الله لهم في الحالَيْن!

وهذا بخلافِ حالِ المؤمنين الذين يشكرون الله على السَّراء، ويصبرون على الضراء، كما ثبت في الصحيحين: « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (١)، وفي مسند أحمد، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ: قال: « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ شَيْئًا إِلاَّ كَانَ خَيْرًا لَهُ » (٢)

فالمؤمنُ مَن يتفطَّنُ لما ابتلاه الله به من السَّراء والضراء. ولهذا جاء في الحديث: « مَا يَزَالُ الْبَلاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ - فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ - حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ » (٣)

ولهذا عقَّبَ هذه الصفةَ بقوله: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ أي: أخذناهم بالعقوبة بغتةً، أي: على بغتةٍ منهم، وعدم شعورٍ منهم، أي: أخذناهم فجأةً،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أحمد: أول مسند البصريين، حديث أبي المليح عن أبيه رضي الله عنه رقم ١٩٤٠١.

(٣) الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم ٢٣٢٣، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

كما جاء في الحديث: « مَوْتُ الْفَجْأَةِ رَاحَةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَأَخْذَةُ أَسَفٍ [١] لِفَاجِرٍ » [٢]

أخي المسلم: ذاك ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

ومن فضل الله ورحمته أنْ حَفِظَ لنا القرآنَ، وأرشدنا فيه إلى ما يجبُ أن نكون عليه من فَهْمٍ لحقيقةِ الحياة، وإدراكٍ لغايتها؛ فما جاء الإنسانُ إلى الدنيا ليخلد إليها ويُقيم، وإنما جاء إليها بأمر ربِّه، ولا عِلْمَ له - من قبل - بساعةِ مجيءٍ.

جاء إليها؛ ليعمل فيها عملاً يرجو به رحمةَ ربِّه، وسيخرُجُ منها بمثلِ ما جاء إليها، ولا علمَ له بساعةِ خروجٍ. وهو بدُنياه مُمتَحَنٌ ومُختَبَرٌ، وسيجدُ ما عمله حاضراً لا يغيب، ويراه خيراً كانَ أم شراً.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [٣]

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [٤]

(١) أيْ أَخْذَةَ غَضَبٍ أوْ غَضْبان.

(٢) أحمد: باقي مسند الأنصار، رقم ٢٣٨٩١.

(٣) الزلزلة: ٧، ٨.

(٤) الأنبياء: ٤٧.

وإذا كان الانتقالُ من الدنيا إلى ما بعدها أمراً لا بُدَّ منه ولا مَفَرَّ من وقوعه، فمن الرُّشْدِ أنْ يُسارعَ الإنسانُ في محاسبة نفسه وتدبُّرِ أمره قبل أن يُحال بينه وبين ذلك.

وألوا الألباب هم الذين يؤمنون بما أنزل الله من كتاب، وما أرسل من رسول، وهم الذين يتَّقون أن يكونوا مع الهالكين الخاسرين.. يتَّقون باتباع ما أمرهم الله به، واجتناب ما نهاهم عنه ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾ (١)

بهذا يتجنَّبُ الإنسانُ سُوءَ العاقبة والمصير، ويُحسن الإجابةَ فيما يُبْتلى به ويُمتَحَن، لا يُبارح الشكرَ إلى الكُفر والجحود، ولا يُبارح الصبرَ إلى الجَزَعِ والقنوط، بل يكون رابحاً في الحالَيْن - في السراء والضراء، والشدة والرخاء - بصبره وشُكره ورضاه عن ربِّه. يستحضرُ العاقبةَ، ويحذرُ الآخرةَ، ويرجو رحمةَ ربِّه، ويتَّعظ ويستبصر بما أخبر به القرآنُ وذكَّرَ وبَصَّرَ

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٢)

---

(١) الطلاق: ٨- ١١.

(٢) ق: ٣٦، ٣٧.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

يقولُ تعالى مُخبراً عن قِلَّةِ إيمانِ أهل القُرَى الذين أَرْسَلَ فيهم الرُّسُل، كقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ (٢) أي: ما آمنت قريةٌ بتمامِها إلاَّ قومُ يُونُس، فإنهم آمنوا وذلك بَعْدَمَا عَـــايَنُوا العذابَ، كما قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (٣)

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ أي: آمنت قلوبُهم بما جاءهم به الرُّسُلُ، وصدَّقت به واتَّبعـــته، ﴿ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ أي: بفِعْلِ الطاعات وتَرْكِ

(١) الأعراف: ٩٦- ٩٩.
(٢) يونس: ٩٨.
(٣) الصافات: ١٤٧، ١٤٨.

المحرَّمات ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: قَطْر السماء ونبت الأرض. قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ أي: ولكن كذَّبوا رُسُلَهم، فعاقبناهم بالهلاكِ على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

ثم قال تعالى - مُخوِّفاً ومُحذِّراً من مخالفة أوامره، والتجرؤ على زواجره -: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ أي: الكافرة ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ﴾ أي: عذابُنا ونَكالُنا ﴿ بَيَٰتًا ﴾ أي: ليلاً ﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ أي: في حال شُغلهم وغفلتهم. ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي: بَأْسَهُ ونِقمته وقُدرته عليهم، وأخْذه إيَّاهم في حالِ سَهوهم وغفلتهم ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ ولهذا قال الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ اللهُ: المؤمنُ يعملُ بالطاعات وهو مُشْفِقٌ وَجِلٌ خائفٌ، والفاجرُ يعمل بالمعاصي وهو آمِن.

أخي المسلم: ذَاكَ ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ.... الآيات ﴾

ولقد يسَّر الله تعالى القرآنَ للذِّكر؛ ليتذكَّرَ به مَن يتذكَّر، ويتَّعظ به مَن يتَّعِظ. وما مِن أمرٍ أو شأنٍ تحدَّث القرآنُ عنه، أو دعَا إليه، أو حذَّر منه، إلاَّ وترى صِدْقَ ما تحدَّث به، وخيرَ ما دَعى إليه، وشَرَّ ما حذَّر منه.. تراه واقعاً في حياة الناس عَاجِلاً أو آجِلاً.

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ

رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١)

وآياتُ الله دالَّةٌ على الحقِّ داعيةٌ إليه، ناهيةٌ عن اتِّباع الباطل مُحذِّرةٌ منه.

وما يصيبُ الناسَ من ضنكٍ وشقاءٍ هو بما كسبت أيديهم، وما وقعَ من لعنةٍ على مَن لعنهم الله، هو بما عَصَوْا وكانوا يعتدون.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (٢)

ذاك هو بابُ الخير ومفتاحُ الرجاء ﴿ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ وليس هذا لدُنيا الناس فحسب، بل لدُنياهم وأُخراهم؛ إذ لا يُرجَى للناس من خيرٍ - في عاجلِ أمرهم وآجله - إلاَّ بتُقَىً وإيمان ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٣)

وتلك وصيةُ الله للأوَّلين والآخرين ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ

---

(١) الأعراف: ٥٢، ٥٣.
(٢) الأعراف: ٩٦.
(٣) المائدة: ٦٥.

﴿ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾ (١)

ولا تُقىً بغير صبرٍ، ولا صبرَ بغير إيمان.

والذين يتصوَّرون أنَّ هذه صفاتٌ يُوعَظُ بها الناسُ وكفَى - دون مؤاخذةٍ أو عقابٍ - يُخطِئون ويُسيئون.

إنها صفاتٌ يتوقَّفُ عليها أمنُ الناس وسلامُهم، في دُنياهم وأُخراهم. ولا أَمْنَ لهم بغير ما أَمَّنَهم اللهُ به، ولا سلامَ يُرْجَى لهم بغيرِ اتِّباع سُبُلِ السَّلام من تُقىً وإيمان.

وإنْ هم أَبَوْا إلاَّ المخالفة والإعراض والجحود لِمَا أَمَرَ الله به ودَعا إليه، فلا أَمْنَ لهم ولا سَلام. وكُلُّ تعلُّقٍ بأمنٍ وسلامٍ دون الأخذِ بالأسباب - كما أمر الله - وَهْمٌ وسَـــرَابٌ.

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (٢)

إنَّ ما يُحذِّرُ اللهُ منه أمرٌ واقعٌ، مَا لَهُ من دافعٍ؛ إذْ الأرضُ ومَن فيها لله , ولا بقاءَ لها ولا استقرارَ إلاَّ بإذنه، ومِن هنا جاءت الإشارةُ بذِكره وتقواه؛ ليأمَنَ الناسُ مِمَّا يقعُ بهم أو عليهم.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ

(١) النساء: ١٣١- ١٣٣.
(٢) الأعراف: ٩٧- ٩٩.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١)

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢)

فطُوبَى لِمَن اعتَبَر بغيره، ووَيْلٌ لِمَن أعرضَ عن ذِكْرِ ربِّه.

(١) المؤمنون: ٨٤- ٨٧.

(٢) الملك: ١٦- ١٨.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ ﴾ أوَ لَمْ نُبَيِّنْ لهم ﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ ﴾ كما قال مجاهدُ وغيرُه. وقال أبو جعفر بنُ جريرٍ في تفسيرها: يقول تعالى: أو لم نُبَيِّنْ للذين يُستخْلَفون في الأرض من بعد إهلاكِ آخرين قبلهم، كانوا أهلَها، فساروا سيرتَهم: وعملوا أعمالهم، وعَتَوا على ربِّهم ﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ ﴾ يقول: أن لو نشاءُ فعلنا بهم كما فعلنا بِمَن قبلهم ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: ونختمُ على قلوبهم ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ موعظةً ولا تذكيراً.

قلتُ: وهذا كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ

---

(١) الأعراف: ١٠٠.
(٢) طه: ١٢٨.

يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [1]، وقال: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [3] أي: هل ترى لهم شخصاً، أو تسمعُ لهم صَوْتاً ؟ وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [4]، وقال تعالى - بعد ذكره إهلاك عاد -: ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [5]، وقال جلّ شأنه: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟

---

(١) السجدة: ٢٦.
(٢) إبراهيم: ٤٤، ٤٥.
(٣) مريم: ٩٨.
(٤) الأنعام: ٦.
(٥) الأحقاف: ٢٥- ٢٧.

مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [3]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [4]، إلى غير ذلك من الآيات الدَّالة على حُلول نِقَمِهِ بأعدائه، وحصول نِعَمِهِ لأوليائه.

أخي المسلم: ذاك ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ومَن تدبَّر أيقَنَ أن لله سُنناً في خَلقه لا تتحوَّل ولا تتبدَّل، ولا تُحامِل ولا تُحابي. مَن كذَّب بالحقِّ أُخِذَ بذنبه من غير إعذارٍ وإنذار. وساحةُ الأرض أمام أعين الناس تستقبل وتُودِّعُ، وهي تبكي ناساً، وتلعَنُ آخرين، تَحِنُّ إلى تَقِيٍّ يُصلِحُ فيها، ولا تبكي على ظالمٍ يُؤْخَذُ بذنبه. وكُلُّ دابةٍ تمشي على ثَرَاها لا تلبَثُ أن تُقْبَرَ في بطنِها، وفي جميع الحالات ترى بالغَ العِبرة والموعظة، ودلائلَ التبصرة والذِّكرى في إقبال المخلوقين وإدبارِهم، وحياتِهم ومَوتِهم، وتقلُّبِ أحوالِهم.

---

(١) سبأ: ٤٥.
(٢) الملك: ١٨.
(٣) الحج: ٤٥، ٤٦.
(٤) الأنعام: ١٠.

والأرضُ - وفيها أحياءٌ وأمواتٌ - تُخاطِبُ الناسَ بما فيها، وتُريهم عاقبةَ مَن كان قبلَهم؛ ليأخذوا حِذْرَهم، ولا يقَعُوا فيما وقعَ فيه مَن هلك قبلهم.

وهذا ما يجبُ أن يكون في الحُسبان؛ حتى لا يغتَر الإنسانُ بقوةٍ أو غرورٍ أو متـــاعٍ

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

والناسُ لو أحسنوا التدبُّرَ لَعَلِمُوا - وهم يتوارَثون - أنَّ ما بأيديهم لم يصل إليهم إلا بموتِ مَن كان قبلهم، وسيخرجُ من يَدِهم بمثلِ ما جاءَ إليهم.

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَـَٔاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (٢)

أخي المسلم: إن القرآنَ - وهو يَعِظُ بعاقبة مَن كان قبل - يُذكِّرُ بسُنن الله الماضية. وفي ذلك عَوْنٌ للإنسان وتبصرةٌ له؛ حتى يُصلِحَ في الأرض ولا يُفسد، ويشكر نِعَمَ الله ولا يكفر.

إنَّ حديثَ القرآن عن الأُمم الماضية فيه بلاغٌ بسُنَنِ الله الباقية. وتَدَبَّرْ - إن شئتَ - قولَ الله تعالى: ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ (٣)

---

(١) غافر: ٢١.

(٢) الأنعام: ١٣٤.

(٣) إبراهيم: من الآية ٥٢.

واقرأ ما جاء قبله لتُخْلِص لله قصدَك ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١)

(١) إبراهيم: ٤٥- ٥٢.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قولِه تعالى:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هاتين الآيتين قوله:

يقول تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي: سأمنع فَهْمَ الحُجَج والأدلة - على عظمتي وشريعتي وأحكامي - قلوبَ المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حقٍّ. أي: كما استكبروا بغير حَقٍّ أَذَلَّهُمُ الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ (٣)

وقال بعضُ السَّلف: لا ينالُ العلمَ حَيِيٌّ ولا مستكبرٌ. وقال آخرُ: مَن لم يصبر

---

(١) الأعراف: ١٤٦، ١٤٧.

(٢) الأنعام: ١١٠.

(٣) الصف: من الآية ٥.

على ذُلِّ التعلُّمِ ساعةً، بقي في ذُلِّ الجهل أبداً.

وقال سفيان بن عُيَينة في قوله: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ قال: أنزع عنهم فَهْمَ القرآنِ، وأصرفهم عن آياتي. قال ابن جرير: وهذا يدلُّ على أنَّ هذا خطابٌ لهذه الأمة.

قلتُ: ليس هذا بلازمٍ؛ لأن ابنَ عيينة إنما أرادَ أنَّ هذا مطرد في حقِّ كُلِّ أمةٍ، ولا فَرْقَ بين أحدٍ وأحدٍ في هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (١)

وقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ أي: وإنْ ظَهر لهم سبيلُ الرشد - أي: طريقُ النجاة - لا يسلكوها، وإنْ ظهر لهم طريقُ الهلاك والضلالِ يتَّخذوه سبيلاً !

ثم عَلَّلَ مصيرَهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ أي: كذَّبت بها قلوبُهم ﴿ وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ أي: لا يعلمون شيئاً ممَّا فيها.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ﴾ أي: مَن

(١) يونس: ٩٦، ٩٧.

فعل منهم ذلك واستمرَّ عليه إلى الممات، حَبِطَ عملُه.

وقوله: ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ أي: إنما نُجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ. وكما تدينُ تُدان.

أخي المسلم: ذاك ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

إنَّ لكُلِّ شيءٍ عاقبته، ولكُلِّ عملٍ جزاءَه. وكثيراً ما ترى جزاءَ الشيءِ مُتَّصلاً به لا يبتعدُ عنه.

فالحسدُ ترى جزاءَه في نفسِ صاحبه ناراً تؤرِّقه وتَحرقه. **والكِبْرُ** ترى جزاءَه في سلوك صاحبه بُعْداً عن الرشدِ، واتِّباعاً للغَيِّ. **والتكذيبُ بالحقِّ** ترى جزاءه في سُوء الأحول وضنْك الحياة.

جزاءٌ يقعُ في دُنيا الناس قبل آخرتهم.

ولا تَسَلْ عمَّا يحيقُ بأهل الكِبْرِ من عذابٍ وهوان.

وأعظم التكبُّر: التكبُّر على الله، بالامتناع عن قَبول الحقِّ والإذعان له بالعبادة.

وحديثُ القرآنِ في ذلك فيَّاضٌ بالذكرى، دافعٌ للعِبرة والخشية، وهو يُبيِّنُ مصيرَ

مَن استكبرَ، وعاقبةَ مَن طَغَى وتجبَّرَ؛ ليعتبر بذلك مَن يعتبر، ويتَّعظ به من يتَّعِظ.

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (١)

هؤلاء طلبوا الترفُّعَ على الناس في الدنيا فصُرِفُوا عن قَبولِ الحقِّ؛ لتكبُّرهم في الأرض بغير الحقِّ. وذلك جزاؤهم عند ربِّهم.

استكبارٌ في الأرض بغير الحقِّ يُقابله في الآخرة عذابٌ وهوانٌ بالحقِّ ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (٢)، ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٣)

ذلك هو العذابُ. عذابُ الهُونِ بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق.

عقابُ هؤلاء صَرْفٌ عن آياتِ الله، وبُعْدٌ عن الحقِّ؛ لجُحودهم له، واستهزائهم به، وترفُّعهم عن قبوله والانقيادِ له ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى

(١) القصص: ٣٩- ٤٢.
(٢) غافر: ٧٥، ٧٦.
(٣) الأحقاف: ٢٠.

ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾

لقد صُرِفُوا عن قبول الحق؛ لتكبُّرهم في الأرض بغير الحقِّ.. ليس فيهم من صفاتِ تكبرهم عند الناس، وإنما هم يتصنَّعون ويترفَّعون. وهم ساقطون !!

﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ وهؤلاء لا تنفعهم الآيات ولا تُفيدهم ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾

إنَّ الذي تُرشِّحه صفاتُه لأن يكون بين الناس كبيراً، غيرَ الذي تفرضه صَفَاقَتُهُ على الناسِ بأن يتَّخذوه كبيراً.

ذاك له صفاتُ صدقٍ تُعين الناسَ على الحقِّ - وهو كبيرٌ بالحقِّ لا بالباطل - وهذا يستكبِرُ في الأرضِ بغير الحقِّ.

وشتَّان ما بينهما.. فما كان بالحقِّ فَمِن هدايةِ الله ورحمته، وما كان بغير الحقِّ فَمِن هَوَى النفسِ، ووسوسةِ الشيطان. وهؤلاء إنْ طلبوا الترفُّعَ على الناس في الدنيا، وأصرُّوا على أن يكونوا أئمةً بالقَهر والغلبة، فإنهم سيكونون أئمةً إلى النار، يُقادُونَ إليها كما كانوا أئمةً يدعون إليها.

وهذا الدَّاءُ يُصيبُ الأممَ كما يُصيبُ الأفرادَ، والمصير هو المصيرُ لكُلِّ مَن بغى وتجبَّر، وطَغَى واستكبر.

نعوذ بالله من شرورِ أنفسنا، ومن سيئاتِ أعمالنا.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

يقول تعالى لنبيِّه ورسوله محمدٍ ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمدُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وهذا خطابٌ للأحمرِ والأسودِ، والعربيِّ والعجمي ﴿ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أي: جميعكم. وهذا من شَرَفِه وعظمته، أنَّه: خاتم النبيِّين، وأنه مبعوثٌ إلى الناس كافَّة، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ (٤) والآياتُ في هذا كثيرةٌ،

---

(١) الأعراف: ١٥٨.
(٢) الأنعام: من الآية ١٩.
(٣) هود: من الآية ١٧.
(٤) آل عمران: من الآية ٢٠.

كما أن الأحاديثَ في هذا أكثر من أن تُحْصَر.

عن أبي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: « كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مُحَاوَرَةٌ، فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ، فَانْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: وَنَحْنُ عِنْدَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ [(١)] قَالَ: وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَأَقْبَلَ حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَصَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْخَبَرَ. قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: وَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي ؟ هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي ؟ إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ » [(٢)]

وفي الصحيحين من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » [(٣)]

وقوله: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ ﴾

---

(١) غامر: سبَقَ بالْخَيْرِ.

(٢) البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، رقم ٤٢٧٤.

(٣) البخاري: كتاب التيمم، باب قول الله تعالى: فلم تجدوا ماء فتيمموا، رقم ٢٣٢.

صفةُ الله تعالى في قول رسول الله ﷺ: إنَّ الذي أرسلني هو خالقُ كُلِّ شيءٍ وربُّه ومليكُه، الذي بيده المُلك والإحياء والإماتة، وله الحُكم.

وقوله: ﴿ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ﴾ أخبرهم أنه رسولُ الله إليهم، ثم أمَرَهم باتِّباعه والإيمانِ به. ﴿ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ﴾ أي الذي وُعدتم وبُشِّرتم به في الكُتب المتقدِّمة، فإنه منعوتٌ بذلك في كُتبهم، ولذا قال الله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ﴾. وقولـه: ﴿ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ أي: يُصدِّقُ قولُه عملَهُ، وهو يؤمنُ بما أُنزل إليه من ربِّه. ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ ﴾ أي: اسلُكوا طريقَه، واقتفوا أثَره؛ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى الصراط المستقيم.

أخي المسلم: ذاك ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

رسالةٌ عامةٌ شاملةٌ. من أصولِ الإيمان بها: الإيمان برُسل الله جميعاً بلا تَفْرِقَةٍ. وقد أخذ الله ميثاقَ النبيِّين أن يؤمنَ بعضُهم ببعض، وأن ينصُرَ بعضُهم بعضاً.

﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (١)

(١) البقرة: من الآية ٢٨٥.

وتلك سمَةٌ من سِمَات الرسالة الخاتمة. إذ ليس بعد الرسولِ الخاتم رسولٌ، ولا بعد الكتاب المُنـــزَّلِ عليه كتابٌ. فلا عَجَبَ أن يكون الكتابُ المُنـــزَّلُ عليه - المحفوظ بحفظ الله - أن يكون مُصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب، ومُهيمناً عليه؛ فهو شاهدٌ، وحافظٌ، ومؤتَمَنٌ.

تَقْرَأُ فيه عن رسالات الرُّسُلِ جميعاً، وتعرف من قصصهم ما تَستَيقِنُ به أن هذا الدِّينَ دينهم جميعاً، وأنهم بُعثوا به جميعاً.

ما شرعه الله من هذا الدِّين هو ما وصَّاهم به جميعاً.

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (١)

وهذه الحقيقة حين تُتَدبَّر، وينهض المسلمون بسُلوكهم وروابطهم - كما نهضوا من قبل في التعبير عن هذه الحقيقة فيما بينهم أو بين غيرهم - سَيَفِيء الناسُ إلى جوهر هذه الحقيقة، ولن يغفروا لمن أساءَ لها أو فرَّط فيها؛ لأنها عنوانُ ترابط وتعارف وأمنٍ حقيقي وسلام.

فهل يَعِي المسلمون - في حاضرهم - جوهرَ هذه الرسالة؛ ليكونوا عُنوانَ صِدْقٍ لها، داعينَ إليها بروابطهم وأعمالهم، مُعبِّرين عنها بصدْقِ إخلاصهم لربِّهم، غير صادِّين أو مُنفِّرين.

إنهم مأمورون أن يُبلِّغوا هذه الرسالة الخاتمة للعالمين، وقد حَفِظَ الله لهم دينَهم،

(١) الشورى: من الآية ١٣.

فضَمِنَ لهم أسبابَ الرفعة والصعود، وما عليهم إلاَّ أن يمضوا بخطواتٍ ثابتةٍ واثقةٍ، وهم يعرفون سُنَنَ الله في خَلْقه، فليأخذوا بأسباب نصره، وليتجنبوا سُبُلَ خُذلانه وسخطه، وليُقدِّموا الدعوةَ العالمية - كما قدَّمها أسلافُهم - في أسلوبٍ عملي، ونَمَطٍ حضاريٍّ عَلَتْ فيه قيمةُ العلم، وسَمَتْ مكانةُ العلماء، ووُجِدت فيه أمَّةُ الخير التي تُنْصِف المظلومَ ولو كان من غيرها، وتأخذ على يدِ الظالم ولو كان منها، فكانت للإنسانيةِ كُلِّها قوة عدلٍ وأمنٍ، انتصرت بفضلها وفضائلها قبل أن تغلب بقوَّتها.